

عقوبات التأديب والتنكيل

في القرآن

محمّد مهدي الآصفي

مختارات من محاضرات ومقالات
ومؤلفات الشيخ محمد مهدي الآصفي
- ٨٨ -

* * *

اسم الكتاب: .... عقوبات التأديب والتنكيل في القرآن
المؤلف: .... محمّد مهدي الآصفي
الطبعة الرابعة: .... ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م
الكمية .... ٥٠٠٠ نسخة
المطبعة: .... مطبعة مجمع أهل البيت ^ النجف الأشرف


بسم الله الرحمن الرحيم

العقوبات من ضرورات الإسلام والذي ينكرها ينكر بعض ضروريات الدين.

وبالعقوبات نستدل على عدالة الله.. وبالعدالة نستدل على ضرورة وجود العقوبات في الدين.

تماماً مثل الانظمة الاجتماعية والحقوقية العادلة فإنها لابد ان تتضمن نظاماً خاصاً للعقوبات.. ومن دون ذلك لا تستطيع ان تحقق العدالة في العلاقات الاجتماعية.

فلا يمكن في النظام الكوني القائم على العدالة والحكمة أن لا تتضمن نظاماً للعقوبات في الدين، كما لا يمكن ان لا يكون لخالق هذا النظام ومدبره نظام للعقوبات.

عن أبي رفعة، قال: إن أمير المؤمنين 7 صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس الذنوب ثلاثة، ثم أمسك. فقال له حبة العرني: يا أمير المؤمنين، فسّرها لي.

فقال: ما ذكرتها إلاّ وأنا أريد أن أفسرها، ولكنه عرض لي بُهر (انقطاع النفس بسبب الاعياء) حال بيني وبين الكلام.

نعم، الذنوب ثلاثة: فذنب مغفور، وذنب غير مغفور، وذنب نرجو لصاحبه ونخاف عليه.

قيل: يا أمير المؤمنين، فبينها لنا.

قال: نعم، أما الذنب المغفور فعبد عاقبه الله على ذنبه في الدنيا، فالله أحكم وأكرم ان يعاقب عبده مرتين.

وأما الذنب الذي لا يُغفر فمظالم العباد بعضهم لبعض. . إن الله تبارك وتعالى إذا برز لخلقه أقسم قسماً على نفسه، فقال وعزتي وجلالي، لا يجوزني ظلم ظالم ولو كف بكف.. فيقتص للعباد بعضهم من بعض، حتى لا يبقى لأحد على أحد مظلمة[(١)].

وأما الذنب الثالث فذنب ستره الله على عبده، ورزقه التوبة، فاصبح خاشعاً من ذنبه، راجياً لربه، فنحن له كما هو لنفسه، نرجو له الرحمة، ونخاف عليه العقاب.

أقسام العقوبات

العقوبة ثلاثة أقسام:

١- العقوبة التأديبية والتهذيبية. كما ورد في دعاء الاسحار للإمام زين العابدين 7 : (إلهي لا تؤدبني

---

(١) الكافي ٨ / ١٠٦. والمحاسن للبرقي ص٧، وبحار الانوار ٦/ ٢٩ - ٣٠.

بعقوبتك).

٢- عقوبة الاستدراج والمكر. كما ورد في الدعاء المتقدم: (ولا تمكر بي في حيلتك).

وإليك توضيح هذه العقوبات الثلاثة:

١ـ عقوبة التأديب والتهذيب

العقوبات التأديبية والتهذيبية متقاربة، ولكنهما يختلفان عن بعض ببعض الاختلاف.

فإن العقوبات التأديبية هي العقوبات التي تنبّه العبد إلى خطئه ولله، وتوجه العبد إلى الله بالاستغفار والتوبة.

والعقوبات التهذيبية هي الابتلاءات التي يواجهها العبد في الدنيا أو في سكرات الموت عند الاحتضار أو في العقوبات التي يلقاها بعد موته.. وهذه الابتلاءات والعقوبات تزيل عنه أوضار الذنوب ورين المعاصي، فتهذبه وتصفيه لدخول الجنة، فإن الجنة دار السلام، ولا يدخلها المؤمنون إلاّ بعد أن يتطهروا ويتخلصوا عن كل ما لصق بهم في دار الدنيا من أوضار الذنوب.

والقدر المشترك بين هاتين العقوبتين، أنهما من أبواب

رحمة الله تعالى بعباده العاصين، فإن العقوبة التأديبية تنبّه العبد إلى الاقلاع عن الذنب وتوجهه إلى الندم والاستغفار والتوبة.

وهذه رحمة من عند الله وفضل منه تعالى لعباده المذنبين.

والعقوبة التهذيبية تخلص العبد من أوضار الذنوب والمعاصي، ليصلح لدخول الجنة، فإن الجنة لا يدخلها المؤمن إلاّ بعد أن يتطهر ويتخلص من كل ذنوبه ومعاصيه، فهما من أبواب رحمة الله تعالى بعباده وفضله عليهم.

وهاتان العقوبتان في مقابل عقوبة المكر والاستدراج، ففي عقوبة الاستدراج يستدرج الله العبد العاصي من نعمة إلى نعمة، فيتقلب في النعم، وينسى الاستغفار، فيموت وهو محمل بالذنوب معرض عن الاستغفار. وفي عقوبة التأدي والتهذيب ينبّه الله العبد إلى الخطر المحدق وضرورة الاقلاع عن الذنب والاسراع إلى التوبة، ليقلع عن الذنب ويتحرر من أوزاره قبل أن يموت.

والفارق بين العقوبتين ينشأ من الفارق بين الطائفتين من العصاة والمذنبين.

فإن الطائفة الأولى من المذنبين، رغم اقترافهم للذنوب،

وخروجهم عن دائرة الطاعة لم يخرجوا عن دائرة الرحمة الالهية الواسعة التي وسعت كل شيء فتشملهم رحمة الله، رغم ما يرتكبون من المعاصي والذنوب فينبههم الله تعالى بما يلقون من الابتلاءات في الدنيا إلى الخطر الذي يقرب منهم وضرورة الاسراع إلى الاستغفار والتوبة ويذهب الله بذنوبهم بما يبتليهم في الدنيا، وبما يلقون في سكرات الموت عند الاحتضار وبعده.. أقول: يُذهب الله تعالى بذلك عنهم أوضار الذنوب، أو يخففه عنهم وهو من رحمة الله وفضله، وهو قوله تعالى: **(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)**(١)، والعذاب الأدنى في هذه الآية الكريمة هو عذاب الدنيا وعذاب الاحتضار وعذاب القبر بل وعذاب البرزخ، والعذاب الاكبر عذاب الآخرة في النار.. أعاذنا الله منها.

وأما الطائفة الثانية، وهم الذين يعاقبهم الله عقوبة المكر والاستدراج، أو عقوبة التنكيل.. فقد أخرجتهم ذنوبهم عن دائرة رحمة الله الواسعة التي لا تضيق بشيء، فيكلهم الله

---

(١) السجدة/ ٢١ .

تعالى إلى أنفسهم وشهواتهم وأهـوائهم، ويملـي لهـم بالنعمـة بعد النعمة، حتى لا يذكروا ذنوبهم، ولا يندموا على أفعـالهم، ولا يســتغفروا الله، ولا يتخففــوا مــن أوضــارها، كمــا هــم يشتهون..

ولذلك يجب على الإنسـان المـذنب ألا يقطـع حبلـه عـن حبل الله، ويُبقي حبله موصـولاً بحبـل الله، لـئلا تخرجـه ذنوبـه عن دائرة الرحمة فتشـمله رحمـة الله، وتعيـده إلـى الله وترفـع عنه أوضار الذنوب والمعاصي ليدخل إلى دار السلام.

العقوبات التأديبية

عن سفيان بن سمط قال أبو عبد الله 7 : إذا أراد الله بعبـد خيراً فأذنب ذنباً اتبعه بنقمة، ويذكره الاستغفار.

وإذا أراد بعبــد شــراً فأذنــب ذنبــاً اتبعــه بنعمــة لينســيه الاســتغفار، ويتمــادى بهــا، وهــو قــول الله عــز وجــل: **(سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ)**[١][٢].

(١) الاعراف/ ١٨٢، القلم/ ٤٤ .

(٢) بحار الانوار ٥ / ٢١٧، ح ٩ .

وعن الراوندي قال الصادق 7 : (اتقوا الذنوب وحذروها إخوانكم، فوالله ما العقوبة إلى أحد أسرع منها إليكم، لأنكم لا تؤاخذون بها يوم القيامة[1].

عقوبة التهذيب

وهذه العقوبة قد تكون في الدنيا على شكل ابتلاءات تصيب الناس، وتتوالى عليهم في الدنيا لتخفف عنهم الذنوب التي يحملونها، كالامراض والمصائب التي تصيب الناس.

فان لم يخلص العبد فيها عن ذنبه تهجم عليه عند الموت على شكل سكرات الموت عند النزع - أعاذنا الله منها - .

فإن لم يخلص العبد منها عن ذنوبه تدخل عليه قبره فيعذب فيه ليتخلص من ذنوبه ومعاصيه.

فإن لم يتخلص منها رافقه العذاب إلى البرزخ.

فإن لم يتخلص منها طال وقوفه عند الحساب حتى يتخلص منها.

فإن لم يتخلص منها أدخله نار جهنم - نعوذ بالله - حتى

---

(١) بحار الانوار ٦/ ٥٧، ح ٨.

يتخلص منها في نار جهنم، ويطهر فيها، ليصلح لدخول الجنة.

ونتلو عليك الآن طائفة من الروايات الإسلامية في هذا الشأن، عن رسول الله 6 أنه قال: (إذا مرض المسلم كتب الله له كأحسن ما كان يعمل في صحته، وتساقطت ذنوبه، كما يتساقط ورق الشجر)(١).

وهذه المصائب والابتلاءات تخفف عن المؤمن في الدنيا الذنوب التي ارتكبها في غفلاته وسهوه.

عن الإمام زين العابدين عليه السلام: (ما من مؤمن تصيبه رفاهية في دولة الباطل إلاّ ابتلي قبل موته ببدنه أو ماله حتى يتوفر حظه في دولة الحق)(٢).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (ما من الشيعة عبد يقارف أمراً نهيناه عنه فيموت حتى يبتلى ببلية تمحص بها ذنوبه: إما في مال، أو في ولد، وأما في نفسه حتى يلقى الله عز وجل وما له ذنب، وإنه ليبقى عليه الشيء من ذنوبه فيشدد به عليه عند

---

(١) مكارم الاخلاق/ ١٩٥ .
(٢) مكارم الاخلاق/ ١٩٥، ح٩ .

موته)[1].

وعن أبي محمد العسكري عليه السلام، قال: دخل موسى بن جعفر عليه السلام على رجل قد غرق في سكرات الموت، وهو لا يجيب داعياً، فقالوا: يا ابن رسول الله وددنا لو عرفنا كيف الموت وكيف حال صاحبنا؟

فقال: الموت هو المصفاة تصفي المؤمنين من ذنوبهم، فيكون آخر ألم يصيبهم كفارة آخر وزر بقي عليهم.

وأما صاحبكم هذا فقد نخل من الذنوب نخلاً، وصُفّي من الآثام تصفية، وخلص حتى نقي كما ينقى الثوب من الوسخ، وصلح لمعاشرتنا أهل البيت في دارنا إلى الأبد[2].

وقال رجل لامرأته: اذهبي إلى فاطمة عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فاسأليها عني: أنا من شعيتكم؟

فقالت: قولي: إن كنت تعمل بما أمرناك وتنهى عما زجرناك، فأنت من شعيتنا، وإلاّ فلا. فرجعت وأخبرته.

---

(١) بحار الانوار ٦/ ١٥٧، ح ٤ .
(٢) بحار الانوار ٦/ ١٥٥، ح ١٠ .

فقال: يا ويلا، ومن ينفك عن الذنوب والخطايا، فاذن انا خالد في النار.

فرجعت المرأة فقال لفاطمة عليها السلام ما قال زوجها.

فقالت فاطمة عليها السلام: قولي له ليس هكذا. إن شيعتنا من خيار أهل الجنة، وكل محبينا إذا خالفوا أوامرنا ونواهينا ليسوا من شيعتنا، إذا خالفوا أوامرنا ونواهينا في سائر الموبقات وهم مع ذلك في الجنة ولكن بعد ما يطهرون من ذنوبهم بالبلايا والرزايا، أو عرصات القيامة بانواع شدائدها، أو في الطبق الاعلى من جهنم بعذابها.. إلى أن نستنقذهم بحبنا منها وننقلهم بحضرتنا)[1].

وعن محمد بن مسلم قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: والله لا يصف عنه هذا الأمر فتطعمه النار؟

قلت: إن فيهم من يفعل ويفعل.

فقال: إنه اذا كان كذلك ابتلى الله احدهم في جسده، فإن كان ذلك كفارة لذنوبه، وإلاّ ضيّق الله عليه في رزقه، فإن

---

(١) لئالئ الأخبار ص٤٥٨. وبحار الأنوار ٦٥/ ١٥٥.

كان ذلك كفارة لذنوبه، وإلاّ شدد عليه عند الموت، حتى يأتي الله ولا ذنب له، ثم يدخله الجنة[١].

وعن المفضل، قال: أبو عبد الله عليه السلام: (يا مفضل، إياك والذنوب، وحذرها شيعتنا، فوالله ما هي إلى أحد أسرع منها إليكم، إن أحدكم لتصيبه المعرّة من السلطان، وما ذاك إلاّ بذنوبه، وأنه ليحبس عليه الرزق، وما هو إلاّ بذنوبه، وأنه ليشدد عليه عند الموت، وما هو إلاّ بذنوبه)[٢].

وهذه العقوبة، رقم أنها داخلة في دائرة رحمة الله الواسعة، إلاّ أنها صعبة عسيرة.

عن الإمام الصادق عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (أن العبد ليحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام، وأنه لينظر إلى أزواجه في الجنة يتنعمن)[٣].

وهذا هو النحو الأول من العقوبة التي يشير إليها الإمام

---

(١) بحار الانوار ٦/ ١٦٠، ح ٢٦. وذلك في الذنوب التي يغفرها الله. أما الذنوب التي يعاقب الله بها عبده مثل الشرك وعقوق الوالدين والقتل فإن عذاب العبد فيها في نار جهنم.

(٢) بحار الانوار ١٥٧/٦، ح١٥ .

(٣) الكافي ٢٧٢/٢ .

زين العابدينعليه السلام في دعاء الاسحار بقوله: (إلهي لا تؤدبني بعقوبتك).

٢ـ عقوبة الاستدراج والمكر

وهي النحو الثاني من العقوبات الالهية، ظاهرها النعمة، وباطنها النقمة، بعكس عقوبة التأديب والتهذيب التي كان ظاهرها النقمة وباطنها الرحمة.

في هذه الطائفة من العقوبات يتقلب المجرمون من عافية ونعمة إلى عافية ونعمة. ويمدّهم الله تعالى ويمهلهم ويملي لهم.. وهذا الإملاء والامهال نحو من مكر الله تعالى بالمجرمين فيغفلوا عن ذكر الله والاستغفار ويغلبهم الطيش والغرور حتى يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

وإنما يكلهم الله تعالى إلى أنفسهم، ويستدرجهم بالنعم، وينسيهم الاستغفار والتوبة، لأنهم اختاروا الإعراض عن رحمة الله.. ومن يعرض عن رحمة الله فلا تشمله الرحمة، لا لأن الرحمة الالهية تضيق بأحد، فإن رحمة الله لا تضيق بشيء، والعبد شيء من الاشياء وإنما لأنهم - أي المجرمون - أصرّوا على الإعراض عن رحمة الله، والدخول في دائرة

مشاققة الله ومحاربته والتمرد عليه. . فيكلهم الله إلى أنفسهم، كما أرادوا، فلا تصيبهم معرّة أو ابتلاء في الدنيا كما يصيب المؤمنين، وإنما يتقلبون في النعمة والعافية حتى ينقض عليهم الاجل فيأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

وهذا هو الإملاء والاستدراج.

ومعنى الإملاء: الامهال فلا يعجل الله بعذابهم كما يعجل بعذاب المؤمنين لينتبهوا من غفلاتهم، فيمهلهم ليمعنوا في التمرد والإجرام والإفساد، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

ومعنى الاستدراج ان يفسح الله لهم الطريق إلى المعاصي والذنوب، فيندرجوا من عصيان إلى عصيان ومن إجرام إلى إجرام، دون أن يعيقهم إليه عائق من ابتلاء أو مصيبة، كما يصيب المؤمنين المذنبين. . وكأنما الله تعالى يستدرجهم إلى ما يطلبونه من المعاصي والجرائم استدراجاً.

يقول تعالى: **(وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ* وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)**[١].

---

(١) الاعراف/ ١٨٢ - ١٨٣ .

توضيح للاستدراج

يستخدم البوليس طريقة (استدراج المجرمين) لاثبات الجريمة بالجرم المشهود فيراقبون المجرم عن كثب، في جميع مراحل ارتكاب الجريمة دون أن ينبهوه إلى هذه المراقبة ليلقوا عليه القبض، وهو متلبس بالجريمة.. وذلك لغرض اثبات الجريمة بالجرم المشهود المحسوس.

ويجري نفس العمل في سنن الله تعالى، ولكن لغاية اخرى، وليس لاثبات الجريمة.. فان جوارحهم تشهد عليهم بما اجرموا يوم القيامة، ولا حاجة إلى استدراجهم لاثبات الجريمة عليهم بالحس والشهود يوم القيامة.

وإنما يجري استدراج المجرمين في سنن الله تعالى لغرض تفعيل ما في نفوسهم ونياتهم من شر أو خبث ونقصد بالتفعيل المعنى الفلسفي لهذه الكلمة، وهو الخروج من القوة إلى الفعلية.

فإن المجرمين يحملون في انفسهم ونياتهم شراً وخبثاً كثيراً، كما يحمل الصالحون في نفوسهم خيراً كثيراً.. وكما يتمنى الصالحون ان يوفقهم الله لتفعيل هذا الخير وابرازه وتحقيقه، كذلك يتمنى المجرمون ان يحققوا ما في نفوسهم

ونياتهم من شر وخبث ودناءه، فيفعل الله لكل منهما ما يحبون ويتمنون.

والتفعيل الأول هو الاستدراج.

والتفعيل الثاني هو التوفيق.

والتوفيق في مقابل الاستدراج ومعنى الاستدراج - بناءً على ذلك - هو تفعيل ما يريده ويطلبه المجرمون من إجرام وإفساد.

كما أن التوفيق هو تفعيل ما يطلبه الصالحون من صلاح وخير وإصلاح.

ويتم هذا وذاك ضمن سنن الله تعالى، فان نواة التفاحة ونواة الشوكة تحملان بالقوة كل ما في التفاحة من نفع وفائدة، وكلما في الشوكة من اذى وضرر. . والله تعالى يفعل هذه وتلك في نظام الخلقة العام.

ولابد في نظام الخلقة العام من التفاحة والشوكة والصحة والمرض والخير والشر معاً.

وفي نفس الإنسان خير وشر، وعدل وظلم، فإذا كان الغالب عليه هو الخير وفقه الله تعالى للخير، وخلّصه مما في نفسه ونيته وعمله، وهذا هو موضع الاستدراج في سنن الله

تعالى.

فيملي له الله تعالى فيما يريد من ذنب وعصيان، ويمهله ليتمادى في عمله، ولا يبتليه فإن الابتلاء يصدّ صاحبه عن التمادي في الغي والشرّ.

وحيث ان هؤلاء المجرمين أعرضوا عن رحمة الله، وخرجوا من دائرة الرحمة الالهية الواسعة التي وسعت كل شيء فلا ينالون هذه الرحمة بالضرورة.

وعليه، فإن الله يمهلهم ليتمادوا في غيهم، ويحققوا كل ما يطلبون من شر وفساد.

سئل أبو عبد الله الصادق عليه السلام عن الاستدراج، فقال: هو العبد يذنب الذنب فيملي له ويجدد له عنده النعم، فيلهيه عن الاستغفار من الذنوب، فهو مستدرج من حيث لا يعلم[١].

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: (أيها الناس ليراكم الله من النعمة وجلين، كما يراكم من النقمة فرقين. إنه من وسع عليه في ذات يده، فلم ير ذلك استدراجاً فقد آمن مخوفاً، ومن ضيق عليه في ذات يده، فلم ير ذلك اختباراً فقد ضيع

---

(١) بحار الانوار ٢١٨/٥، ح١١ .

مأمولاً[١].

والإمام عليه السلام يشير هنا إلى أمن وخوف في غير موضعهما.

أما الأمن فهو أن يتقلب الإنسان في النعم، فيأخذه الغرور، ولا يحسب أنه قد يكون ذلك استدراجاً له.. وهذا هو الاحساس الكاذب بالأمن.

وأما الخوف والقلق الخاطئ فهو ان يواجه الإنسان ابتلاءً، فيقلق فيها، ويخاف منها، ولا ينظر اليها من منظار الاختبار الالهي لعبده، فيخسر وعي باب من ابواب رحمة الله تعالى بعباده، وهو الابتلاء والاختبار.

وهذا هو النحو الثاني من العقوبات الالهية، التي يشير اليها الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء الاسحار حيث يقول عليه السلام: (ولا تمكر بي في حيلتك).

فانه وان كان ظاهره النعمة، فان باطنه النقمة والعذاب وعلى العبد ان يعوذ بالله تعالى من ان يمكر به في حيلته ويستدرجه إلى معصيته ومخالفته.

---

(١) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح ص٥٣٦، الكلمة/ ٣٥٨، من الكلمات القصار.

٣ـ عقوبة التنكيل والاستئصال

نقرأ في دعاء الافتتاح: (وأيقنت أنك أنت أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة، وأشدّ المعاقبين في موضع النكال والنقمة، وأعظم المتجبرين في موضع الكبرياء والعظمة).

نتساءل لماذا كان الله تعالى (أرحم الراحمين) في موضع العفو والرحمة، وكان (أشد المعاقبين) في موضع النكال والنقمة.. وكان يناسب رحمته ان يكون أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة، وأخف المعاقبين في موضع النكال والنقمة.

والجواب: أن الله تعالى مطلق في كل شيء شديد في كل شيء، وهو فعال لما يريد.. فإذا أراد الرحمة كان شديد الرحمة، أرحم الراحمين، وإذا غضب وسخط على عبده - معاذ الله - كان أشد المعاقبين، ولكن رحمته اوسع من غضبه، وقبل غضبه.

ولذلك فلا يأمن العبد عقاب الله لانه اشد المعاقبين ولا يخيب عن رحمته الله، لانه ارحم الراحمين، ويتردد العبد بين رجاء الرحمة ومخافة التعقوبة.. بين الخوف والرجاء، وهذه هي العلاقة الصحيحة بالله تعالى.

روى الحلبي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: (ألا اخبركم بالفقيه، الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله، ومن لم يؤمنهم من عقاب الله، ولم يرخص لهم في معصية الله. ولم يترك القرآن رغبة عنه إلى غيره. ألا لا خير في علم ليس فيه تفهم. ألا لا خير في عبادة ليس فيها تدبر. ألا لا خير في عبادة لا فقه فيها).

والاستدراج في الدنيا والعقوبة في الآخرة كل منهما حاصل من غضب الله تعالى.

إلا ان الاستدراج في الدنيا وعذاب التنكيل في الدنيا والآخرة. وهذا هو الفرق الأول بين العذابين.

عقوبة الاستدراج ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، وعقوبة التنكيل ظاهرها العذاب وباطنها العذاب. وهذا هو الفرق الأول بين عقوبة الاستدراج وعقوبة التنكيل.

والفرق الثاني بينهما، أن عقوبة الاستدراج في الدنيا وعقوبة التنكيل في الدنيا والآخرة.

يقول تعالى في تعميم عقوبة التنكيل للدنيا والآخرة: **(فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً**

وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ* فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ)(١).

ويقول تعالى فيما أنزل على قوم لوط من العقوبة والعذاب في الدنيا:

(فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ* مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ)(٢).

ويقول تعالى عن العقوبة التي أنزلها بإبرهة وجيشه من اصحاب الفيل:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ* أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ* وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ* تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ* فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ)(٣).

ويقول تعالى عن العذاب الذي أنزل على ثمود:

---

(١) فصلت ١٥ - ١٦ .

(٢) هود ٨٢ - ٨٣ .

(٣) الفيل ١ - ٥ .

(فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ)[١].

والفرق بين عقوبة التنكيل والعقوبات والتأديبية التي تنزل على المذنبين من المؤمنين في الدنيا، أن الاولى عذاب الاستئصال كما نزل بقوم لوط، وثمود، واصحاب الفيل، والسبت، وقوم صالح، والثاني عذاب تنبيه.

وإذا نزل عذاب التنكيل والاستئصال بقوم، فلا ينفعهم إيمانهم ودعاؤهم لرد العذاب إلاّ ما كان من قوم يونس.. فقد نزل بهم العذاب، ولكنهم لما لجأوا إلى الله بالدعاء والتضرع والتوبة، دفع الله عنهم العذاب.

(فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)[٢].

وهذه العقوبة كالعقوبة السابقة لا تنزل بقوم إلاّ عندما يعرضون عن رحمة الله إعراضاً كاملاً، وعندئذ يخرجون عن

---

(١) الذاريات ٤٤ .

(٢) يونس/ ٩٨ .

دائرة رحمة الله.

وحسبك في هذه العقوبة أنها تنزل بالانسان عن غضب الله وسخطه، نعوذ بالله من غضبه وسخطه.

وعن هذه العقوبة ومقارنتها بما يبتلي الله تعالى عباده في الدنيا من أنواع الابتلاء.. يقول أمير المؤمنين عليه السلام كما في رواية كميل بن زياد & في الدعاء المعروف الذي علمه لكميل رضوان الله عليه:

(وَاَنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفي عَنْ قَليل مِنْ بَلاء الدُّنْيا وَعُقُوباتِها وَما يَجْري فيها مِنَ الْمَكارِهِ عَلى اَهْلِها، عَلى اَنَّ ذلِكَ بَلاءٌ وَمَكْرُوهٌ قَليلٌ مَكْثُهُ، يَسيرٌ بَقاؤُهُ، قَصيرٌ مُدَّتُهُ فَكَيْفَ احْتِمالي لِبَلاءِ الاْخِرَةِ وَجَليلِ وُقُوعِ الْمَكارِهِ فيها وَهُوَ بَلاءٌ تَطُولُ مُدَّتُهُ وَيَدُومُ مَقامُهُ وَلا يُخَفَّفُ عَنْ اَهْلِهِ لاَِنَّهُ لا يَكُونُ إلاّ عَنْ غَضَبِكَ وَانْتِقامِكَ وَسَخَطِكَ، وَهذا ما لا تَقُومُ لَهُ السَّماواتُ وَالأَرْضُ يا سَيِّدِي فَكَيْفَ بي وَاَنَا عَبْدُكَ الضَّعيفُ الذَّليلُ الْحَقيرُ الْمِسْكينُ الْمُسْتَكينُ).

ثم يذكر الإمام عليه السلام أن اعظم ما في هذه العقوبة هو شعور العبد في نار جهنم، أن الله أبعده عنه، وحكم بفراقه له، وأنه تعالى لا يحب جواره وقربه، وأنه يمقته وغاضب عليه، إنّ

هذا الإحساس لدى العبد وهو يعذب في نار جهنم أشدّ شيء في هذه العقوبة، رغم كل قساوة نار جهنم وعذابها، فاستمع إليه عليه السلام كيف يصور حالة العبد في نار جهنم، وهو يشعر بأن الله غاضب ساخط عليه، مفارق له، وحاشره مع أعدائه في مكان واحد.

(فَلَئِنْ صَيَّرْتَني لِلْعُقُوباتِ مَعَ اَعْدائِكَ وَفَرَّقْتَ بَيْني وَبَيْنَ اَحِبّائِكَ وَاَوْليائِكَ، فَهَبْني يا اِلـهى وَسَيِّدِي وَمَوْلايَ وَرَبّي صَبَرْتُ عَلى حَرِّ نارِكَ فَكَيْفَ اَصْبِرُ عَنِ النَّظَرِ اِلى كَرامَتِكَ، اَمْ كَيْفَ اَسْكُنُ فِي النّارِ وَرَجائي عَفْوُكَ..).

ثم يقول عليه السلام في الدعاء:

(فَبِعِزَّتِكَ يا سَيِّدى وَمَوْلايَ اُقْسِمُ صادِقاً لَئِنْ تَرَكْتَني ناطِقاً لاَضِجَّنَّ اِلَيْكَ بَيْنَ اَهْلِها ضَجيجَ الاْمِلينَ، وَلاَصْرُخَنَّ اِلَيْكَ صُراخَ الْمَسْتَصْرِخينَ، وَلاَبْكِيَنَّ عَلَيْكَ بُكاءَ الْفاقِدينَ، وَلاُنادِيَنَّكَ: اَيْنَ كُنْتَ يا وَلِيَّ الْمُؤْمِنينَ، يا غايَةَ آمالِ الْعارِفينَ، يا غِياثَ الْمُسْتَغيثينَ، يا حَبيبَ قُلُوبِ الصّادِقينَ).

يعني لو تركه الله مع أعدائه في نار جهنم وأقصاه عن قربه وعن أحبائه.. وأن يعلن ويفصح في في نار جهنم، ومن بين أعدائه ومناوئيه - لو تركه ناطقاً - عن حبه له، وعظيم رجائه

به، وأمله في رحمته ويضج إليه في وسط نار جهنم ضجيج الآملين، ويطلبه بصراخه وعويله، ويبكي لفقده وفراقه بكاء الفاقدين..

العلاقة بين الذنوب والعقوبة

يبقى ان نشير إلى العلاقة بين العمل والجزاء، في سياق الحديث عن الذنوب والعقوبات.. وهذا البحث من رقائق الثقافة القرآنية.

قد تكون العلاقة بين العمل والجزاء من نوع العلاقات التشريعية كالعلاقة بين جريمة شرب الخمر والجلد. والعقوبات الواردة في التشريع كلها من هذا القبيل.. وهذه العقوبات تخص الحياة الدنيا.. وهذا هو النوع الأول من العقوبات.

والنوع الآخر من العقوبات العقوبات التي تقع موقع النتيجة والجزاء الطبيعي من الجريمة والعلاقة بينهما من نوع العلاقة بين الاسباب والمسببات كالعلاقة بين الظلم وما يصيب الظالم من سوء العاقبة.. فإن الظالمين يلاقون في هذه الدنيا نتائج اعمالهم قبل الآخرة.. وقد عاصرنا كثيراً من

الظالمين أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، ولقوا في هذه الدنيا نتائج عدوانهم وظلمهم. . يقول تعالى: **(وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ)**[١].

(فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)[٢].

(فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)[٣].

وهذه العقوبات تعم الدنيا والآخرة، وهي بحكم نتائج اعمال الإنسان في سنن الله تعالى.

والنوع الثالث من العقوبات عقوبة المجرمين بجرائمهم. . فإن لأعمال الإنسان ظاهراً في هذه الدنيا، وباطناً في الآخرة، فإذا انتقل الإنسان من الدنيا إلى الآخرة وجد أعماله أمامه قد سبقه إليها، غير أن هذه الأعمال أحضرت له هذه المرة بصورة أخرى غير التي كان يعرفها في الدنيا، وهي باطن

---

(١) فاطر/ ٤٣ .
(٢) الانعام/ ١٠ ، الانبياء/ ٤١ .
(٣) النحل/ ٣٤ .

الاعمال وجواهرها.

فإن لاعمال الإنسان صورة ظاهرة في الدنيا وحالة باطنة هي جوهر العمل وروحه، والذي يحضر للإنسان من عمله في الآخرة هو باطن العمل وليس ظاهره.

يقول تعالى: **(يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ)**(١).

ويقول تعالى: **(وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)**(٢).

ويقول تعالى: **(يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ* فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)**(٣).

وهذه الآيات وأمثالها في القرآن ظاهرة في أن أعمال

---

(١) آل عمران/ ٣٠ .
(٢) الكهف/ ٤٩.
(٣) الزلزلة / ٦ - ٨ .

الإنسان نفسها تنتقل إلى الآخرة[١]، وأن الإنسان عنـدما يحشـر يواجه عمله الذي قدمه بين يديـه إلـى الله **(يَـوْمَ تَجِـدُ كُـلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً)**.

وهذا نوع ثالث من العقوبة في القرآن.

(١) راجع فـي توضـيح وتفصـيل هـذا البحـث الكتـاب القـيم: (العـدل الإلهي) للشهيد الشيخ مرتضى المطهري، فصل (عذاب الآخرة).

الفهرس